الاتجاهات العلمية في المصنفات الجغرافية الإسلامية

د. مساعد بن عبدالرحمن الجخيدب
قسم الجغرافيا - كلية العلوم العربية والاجتماعية - فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم

أولا: الإطار العام للبحث

رغم تعدد الأبحاث والدراسات في مجال التراث الجغرافي الإسلامي إلا أنه ما يزال غنيًا بالموضوعات التي لم تطرح وتحتاج إلى مزيد من إلقاء الضوء على المدلولات العلمية والمنهجية لها أو حتى التحقيق الجغرافي لنصوصها المكتوبة، ولإيضاح الإطار العام لهذه الدراسة تم تعيين حدود الموضوع، والمشكلة التي تحاول الدراسة معالجتها، والهدف المراد تحقيقه، وكذا التساؤلات التي يمكن أن تجيب عليها.

١-١ موضوع البحث

عند القراءة الأولية لأي من المصنفات الجغرافية الإسلامية يبدو للبعض أنها ذات صفة موسوعية، وهذا التصور نابع من وجود عدد من المرئيات التي ينبثق منها الحكم والمتمثلة في:

١ - الحشد المعلوماتي ذو الصلة المحدودة بالمتن العام للمصنَّف؛ فأحيانًا يورد المؤلف معلومات ذات صلة ضعيفة بالجغرافية، وهذا اقتضته ندرة ما في أيدي المتلقين من كتب في جميع فنون المعرفة، ولعلم المصنف أن هذه المعلومات قد لا تكون معلومة لأغلب المتلقين - للسبب المذكور آنفًا - فإنه يقوم بتدوينها.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون

٢ - التوسع في النصوص الجغرافية والتاريخية العامة؛ وهذه النصوص غالبًا ما تكون توطئة للاستدلال بها في الاستشهادات التخصصية، فمثلا استهل ابن خلدون مقدمته بمعلومات عن خصائص البحار وحال الأمم؛ لتكون منطلقًا لسرد المعلومات التخصصية في الجغرافية السياسية والعمرانية والاجتماعية وغيرها، ويمكن أن تعد هذه المعلومات بمثابة إحاطة بمنطقة الدراسة التي تأخذ بمفهوم تعدد الأقاليم، فالمعالجات غالبًا ما ترتبط بأقاليم واسعة.

٣ - كتابة بعض المفاهيم والمصطلحات الجغرافية التي تكون علاقتها بالتخصص الذي يدور عليه موضوع المصنَّف أساسية، ولا يظهر وضوح هذه العلاقة إلا بعد التعمق في موضوع الكتاب، ومثال ذلك تحديد مفهوم الإقليم في كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي في مقدمة معجمه لما في ذلك من علاقة واضحة بين المفهوم الإقليمي وتعيين المواضع المكانية.

ولهذه المرئيات وغيرها دور في أن البعض يحكم على مصنفات التراث الجغرافي الإسلامي بالموسوعية أحيانًا وبالعمومية أحيانًا أخرى.

وتختلف الموسوعية عن العمومية:

فالموسوعية تعني إيراد معلومات في ميادين المعرفة المختلفة في وعاء (كتاب) واحد بغرض جعلها في متناول الباحثين.

بينما العمومية تعني إصدار تصورات أو صفات أو أحكام عامة في تحديد خصائص الظاهرة. والعمومية أو التعميمات أساسها التشابهات المكانية، وبهذا يختلف مصطلح العمومية عن الموسوعية فهو لا يمكن أن يكون مرادفًا له.

١-٢ مشكلة البحث

تدور مشكلة البحث في محورين: أحدهما تجاهل معظم المراجع المعاصرة خلال عرضها للتطور الفكري لأي من فروع علم الجغرافية - الطبيعية منها والبشرية - إسهامات العلماء المسلمين، واقتصار العرض على معلومات مقتضبة قد لا تصل في حجمها مقدار العرض المخصص لبعض الحضارات التي تسبق الإسلام، بينما يمثل المحور الثاني من المشكلة عدم إنصاف الجغرافيين المسلمين في جهودهم العلمية التي قدموا فيها حقائق ونظريات في علم الجغرافية.

وإن المشكلة في محوريها ناشئة عن فهم خاطئ ترسخ لدى كثير من جغرافيي هذا العصر بأن الموسوعية والعمومية هي محور المعالجات في المصنفات الإسلامية. وهذا الفهم مصدره ضعف الاطلاع لدى البعض على هذا الموروث العلمي أو الانسياق وراء الأحكام - غير الدقيقة - التي أصدرتها بعض كتب الفكر الجغرافي المنشورة على المعرفة الجغرافية الإسلامية.

وتتأكد المشكلة في إيعاز التطور الجغرافي إلى المدارس الحديثة سواءً في آليات الأعمال الميدانية أو اكتشاف الحقائق الجغرافية، وفي هذا تجرد من الحقيقة إذا علمنا أن الإيرادات الجغرافية، العلمية في شرح الظاهرات الطبيعية والبشرية قد نوقشت في عشرات المصنفات، وتُوصل فيها إلى كثير من الحقائق التي قال بها رواد المدارس الجغرافية الحديثة.

١-٣ هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى تعميق الفكرة التي ترى أن الموسوعية الموضوعية التي تتميز بها كتب التراث الجغرافي الإسلامي لا تتنافى مع تغليب بعض الاتجاهات العلمية في كتابة المصنفات الجغرافية مما يمكن معه وضعها في مجموعات ذات أهداف الأصل فيها

المعالجات التخصصية، ولما كان هذا هو الهدف من البحث فقد تم وضع عدد من التساؤلات التي يمكن أن تحققه.

١-٤ تساؤلات البحث

لدراسة هذا الموضوع من زاوية الفكر الجغرافي تم وضع تساؤلين يمكن أن تعطي الإجابة عنهما تحقيق الهدف المرسوم للبحث. وينطوي تحت كل تساؤل تساؤلات فرعية مشتقة منهما. وتتمثل في الآتي:

١ - ما دور العوامل التي أثرت في نمو المعرفة الجغرافية عند المسلمين على الاتجاهات العلمية للمصنفات الجغرافية؟ والإجابة عن هذا السؤال ربما تندرج تحته الأسباب الفعلية في اتخاذ الاتجاهات العلمية للمصنفات الجغرافية وهو ما سيتضح عند دراسة تلك العوامل، وينطوي تحت هذا السؤال أسئلة فرعية:

أ - هل الاتجاه العلمي كان وليد نصوص شرعية؟

ب - لماذا اهتم المسلمون بمراجعة الموروث من المعارف الجغرافية القديمة؟

ج - هل التوسع في الاتجاهات الإقليمية غايته خدمة شؤون إدارة الدولة الإسلامية؟

٢ - كيف يُحكم على أن المصنفات الجغرافية عند المسلمين بأنها ذات اتجاهات علمية؟ والإجابة على مضمون هذا السؤال بمثابة لب الدراسة، التي تتحقق بمجموعة من الأسئلة الفرعية التي تتلخص في:

أ - هل يعد التعدد في المناهج العلمية وسيلة في اتخاذ الاتجاهات العلمية؟

ب - ما انعكاسات التحليل الجغرافي على الاتجاه العلمي؟

ج - كيف تحقق النظريات والحقائق الجغرافية مبدأ الاتجاهات العلمية؟

ثانياً: العوامل التي أسهمت في تطور الجغرافية عند المسلمين وأثرها في تأصيل الاتجاهات العلمية

اقترن تطور الفكر الجغرافي لدى المسلمين بانتشار الإسلام في أنحاء شتى من العالم القديم في قاراته الثلاث، وترتب على ذلك اختلاف خصائص البيئات التي سادها الدين الإسلامي؛ مما أوجد حاجة ماسة لمعرفة وجمع معلومات متخصصة عن تلك البيئات. وتتعدد العوامل التي كان لها الأثر في تطور الفكر الجغرافي الإسلامي، ويحدد الشكل رقم (١) أبرز العوامل الرئيسة والفرعية التي أسهمت في ذلك، ويمكن استعراضها لمعرفة انعكاساتها على الاتجاهات العلمية للمصنفات الجغرافية.

شكل رقم (١)

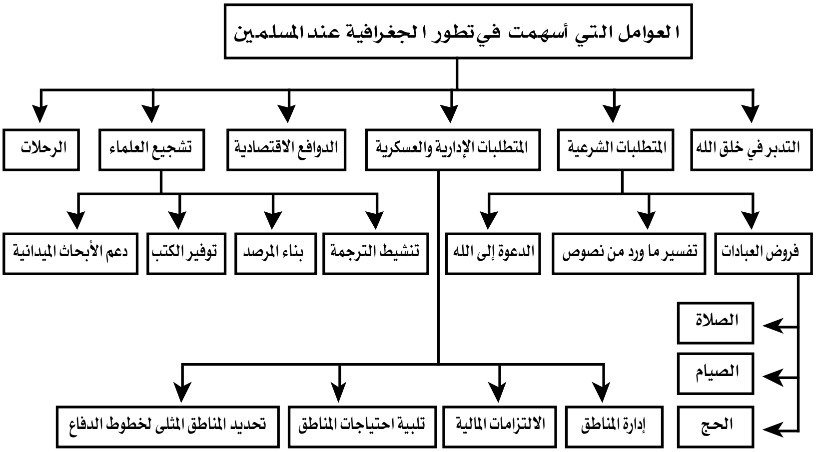

٢-١: التدبر في خلق الله

جاء القرآن الكريم ببيان كثير من الظواهر التي أودعها الله في الأرض قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[٤] هذه صورة إعجازية لظاهرة مهمة في الجغرافيا الطبيعية، حيث يلتقي الماء العذب والماء المالح فلا يختلطان ويمتزجان، وهذه الظاهرة الجغرافية تتحقق عند التقاء الماء العذب بالمالح في جميع المسطحات المائية كما هو في الركن الشمالي الغربي من الخليج العربي قرب جزر البحرين[٥].

ولقد تدبر رواد الجغرافيا عند المسلمين هذه النصوص المتخصصة مما أسهم في تأصيل الاتجاه العلمي الجغرافي لديهم، والآيات الكونية ما هي إلا وسائل أوجدها الله سبحانه وتعالى لمعرفة الحسابات الزمنية قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[٦].

(١) سورة الحجر، آية ١٩.
(٢) سورة ق، آية ٧.
(٣) سورة المرسلات، الآيات ٢٥ - ٢٧.
(٤) سورة الرحمن، الآيتان ١٩ - ٢٠.
(٥) حسن، محمد إبراهيم، (١٤١٢هـ)، الأصول القرآنية للفكر الجغرافي العربي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد التاسع، طرابلس، ليبيا، ص٥٨١.
(٦) سورة الإسراء، آية ١٢.

والقرآن الكريم فيه بيان لعدد من الظاهرات الكونية والجوية والأرضية التي استرعت تفكير نخبة من العلماء، وبهذا تحدد ميدان الجغرافية لديهم بما يتفق مع ما هو معروف اليوم بالأغلفة الجوية والصخرية والمائية.

٢-٢: المتطلبات الشرعية

قام الإسلام على أصول من الكتاب والسنة في تعاليمه التعبدية، فتعتمد أركانه في أدائها على مواقيت زمنية ومكانية؛ فالصلاة تقام في أوقات زمنية محددة ويستقبل فيها جهة محددة، وبما أن بقاع الأرض تختلف في مواقيتها الزمنية والمكانية فقد كان هناك ضرورة لأن يهتم علماء كل ولاية إسلامية بتوضيح هذه الأمور لعامة الناس. وتتلخص المتطلبات الشرعية في أمور عدة منها:

٢-٢-١ فروض العبادات: وضع علماء المسلمين في كل قطر إسلامي حدودًا زمنية لإقامة الصلاة، وما تزال الأدوات التي تقاس بها مواعيد الصلاة موجودة في بعض المساجد القديمة، وتسمى بالساعات الشمسية. وكان الاعتناء بذلك ناتج عن أن الوقت شرطًا لإقامة الصلاة قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾(٧)؛ أي مفروضًا في الأوقات، وكما جاء في الحديث الشريف حول تحديد وقت كل صلاة أن النبي ﷺ "جاءه جبريل عليه السلام فقال: قم فصله، فصلى الظهر حين زالت الشمس، ثم جاءه العصر، فقال: قم فصله، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله أو قال: صار ظله مثله، ثم جاءه المغرب، فقال قم فصله، فصلى حين وجبت الشمس، ثم جاءه العشاء، فقال: قم فصله، فصلى حين غاب الشفق، ثم جاءه الفجر فقال: قم فصله فصلى حين برق الفجر، ثم جاءه من الغد للظهر، فقال: قم فصله، فصلى الظهر حين صار ظل كل شيء مثله،

(٧) سورة النساء، آية ١٠٣.

ثم جاءه للعصر، فقال: قم فصله، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه، ثم جاءه للمغرب المغرب وقتًا واحدًا لم يزل عنه، ثم جاءه للعشاء العشاء حين ذهب نصف الليل، أو قال: ثلث الليل، فصلى العشاء، ثم جاءه للفجر حين أسفر جدًا، فقال: قم فصله، فصلى الفجر، ثم قال: ما بين هذين وقت[٨].

ولقد حُدد الصيام بحدود شهرية وحدود يومية لقول الرسول ﷺ: "إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يومًا"[٩]. وجاء التحديد اليومي بنص القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[١٠].

ولأهمية أمر العبادة فيما يخص تحديدها المكاني والزماني اتخذت بعض الاتجاهات العلمية في كتابة بعض المصنفات التي تفي بأمرها؛ فمثلا كان من أهداف الكتابات الجغرافية والفلكية تحقيق الفائدة وتبصير الأمة للأوقات، ومن ذلك ما أورده البيروني حول أسباب تأليف كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية بقوله: "فقد

(٨) رواه أحمد في باب مسند جابر بن عبدالله (حديث: ١٤٠١١)، انظر أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد (ت: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد، دار المعارف، مصر، ١٩٤٩م. وفي رواية لمسلم عن النبي ﷺ أن رجلا سأله عن وقت الصلاة فقال له: صل معنا هذين يعني اليومين، فلما زالت الشمس أمر بلالا فأذن، ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بالظهر، فأبرد بها فأنعم أن يبرد بها، وصلى العصر والشمس مرتفعة أخرها فوق الذي كان، وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل، وصلى الفجر فأسفر بها، ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال: أنا يا رسول الله، قال: وقت صلاتكم بين ما رأيتم. انظر مسلم بن الحجاج بن مسلم (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٩) رواه مسلم في كتاب الصيام باب وجوب صيام رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال (حديث: ١٨٠٨)، المصدر السابق.

(١٠) سورة البقرة، آية ١٨٧.

سألني أحد الأدباء عن التواريخ التي يستعملها الأمم والاختلاف الواقع في الأصول التي هي في مبادئها والفروع التي هي شهورها وسنوها، والأسباب الداعية لأهلها إلى ذلك وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها مما يعمل عليه بعض الأمم دون بعض واقترح علي الإبانة عن ذلك بأوضح ما يمكن السبيل إليه حتى تقترب من فهم الناظر فيها"(١١).

وارتبط الحج بمواقيت مكانية للإحرام وهي مختلفة في أبعادها من مكة حسب الجهات التي يأتي منها المسلمون لأداء الفريضة، وكان ضروريًا معرفة تلك المواضع (ذو الحليفة، الجحفة، ذات عرق، قرن المنازل، يلملم) التي يتم إحرام الحجاج والمعتمرين منها حتى لا يترتب عند تجاوزها مخالفة شرعية في تمام العبادة.

ويتحدد الحج بميقات زمني متمثلا بدخول شهر ذي الحجة؛ لأن الحج مرتبط بالوقوف بعرفة وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن فاته الوقوف بعرفة - كما هو معلوم - فقد فاته الحج. كما أن بعض واجبات الحج لها مواقيت زمنية مثل: الدفع إلى منى بعد المبيت بمزدلفة، ورمي الجمار.

٢-٢-٢ تفسير ما ورد من نصوص شرعية: ساهمت بعض النصوص الشرعية التي وردت في السنة على تنشيط المعرفة الجغرافية في محاولة لتفسير تلك النصوص من ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا"(١٢). وقول الرسول ﷺ: "لا يجتمع في جزيرة

(١١) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، (١٩٢٣م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، برلين، ص٤.

(١٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة (حديث: ١٦٨١)، مصدر سبق ذكره.

العرب دينان"[١٣]، وقوله ﷺ: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"[١٤]، تلك النصوص وما شابهها أظهرت حاجة ملحة في بيان المقصود من ذلك؛ لتحقيق ما أمر به الرسول ﷺ. كما أوجدت وجهات نظر جغرافية في التحديد، فالنصوص السابقة مثلا جعلت من تحديد جزيرة العرب محل اختلاف بين العلماء الجغرافيين حتى إنه ورد فيه أربعة آراء، منها ما هو متسع كتحديد ابن حوقل والاصطخري، ومنها ما هو ضيق كتحديد المقدسي والجيهاني. وأسهمت تلك النصوص وما شاكلها في ترسيخ مبادئ الاتجاه الإقليمي المتخصص كما هو في مصنفي صفة جزيرة العرب للهمداني، وبلاد العرب للحسن بن عبدالله الأصفهاني.

٢-٢-٣ الدعوة إلى الله وتعلم أمور الدين: بعد فتح البلاد الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لتعلم شرائع الدين، حيث قام عدد من التابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور الدين والدعوة إليه، وفي الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب العلم من المنابع التي ظهر فيها الإسلام سواءً في مكة أو المدينة؛ لما تتمتع به المدينتان من وجود كبار الصحابة والتابعين. وكانت هذه الرحلات في سبيل الدعوة إلى الله أو طلب العلم تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدية للمناطق المقصودة. كما أن أساليب الدعوة في بيئة ما لا يمكن أن تصلح في كل بيئة.

ومما أسهم في تيسر الاتصال المرتبط بالدعوة إلى الله الموقع الجغرافي لموطن الرسالة، فقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحضارية لمنطقة الشرق العربي أن موقعها الجغرافي كان وما يزال متوسطًا في

(١٣) رواه مالك في كتاب الجامع باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة (حديث: ١٣٨٨)، انظر مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر (ت: ١٧٩هـ)، الموطأ، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨م.

(١٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (حديث: ٢٩٣٢)، انظر: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، (ت: ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار القلم، بيروت، ١٩٨٧م.

العلاقات الإقليمية والعالمية، ولذا أسهم بدور الوساطة التجارية من جانب وبدور الدعوة والبلاغ من جانب آخر(١٥).

٢-٣: المتطلبات الإدارية والعسكرية

نمت الدولة الإسلامية وبلغت حدودها من الصين شرقًا حتى الأندلس (أسبانيا) غربًا في غضون سبعين سنة تقريبًا، وكان هذا النمو حصيلة فتوحات في ثلاث خلافات إسلامية (الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، والخلافة العباسية). ويتطلب التوسع في الدولة مراعاة أمور ترتبط بهذا التوسع، منها:

٢-٣-١ إدارة المناطق: عندما أصبح الأمر في معظم أصقاع العالم القديم تحت إمرة الخلافة الإسلامية كان من الأولويات التي اهتم بها الكيفية التي تتم بها إدارة المناطق بما يتفق مع الإمكانات البيئية والخصائص الاجتماعية لكل قطر. وكان الأمر يتم بدراسة التقارير الوصفية (الجغرافية) الأولية من قبل الفاتحين لتحديد الطريقة المثلى لإدارة تلك الأقطار، وتعد تلك التقارير بمثابة النواة الأولى لتطور اتجاهات الدراسات الإقليمية.

٢-٣-٢ الالتزامات المالية: نظم الدين الإسلامي جباية المال عبر أبواب متعددة، فجباية الزكاة تتعين على الموسرين من المسلمين، ويقدر الخراج حسب مقدار غلة الأرض، وهو ما يختلف باختلاف البيئات التي بسط الإسلام تعاليمه السمحة عليها، بينما تؤخذ الجزية على الذميين الداخلين في حمى الولاية الإسلامية، ومثال ذلك ما قام به المقدسي من تحديد للأقليات غير المسلمة في إطار الممالك الإسلامية.

٢-٣-٣ تلبية احتياجات المناطق من المتطلبات المهمة: تقترن عمليات توفير الاحتياجات للمناطق بالمعرفة الجغرافية التي تحدد الأولوية

(١٥) عيسى، صلاح عبدالجابر، (١٤١٢هـ)، الظروف المكانية والبيئية وعلاقتها بالدعوة الإسلامية، الدارة، العدد الثالث، الرياض، ص٥٦.

في تقديم المتطلبات لسكان الولايات الإسلامية؛ فمثلا بناء الطرق وتسهيلها من المتطلبات العامة التي تكفلت بها الخلافة، ومما روي من الاهتمام بذلك ما أناط عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به نفسه بقوله: "لو أن بغلة عثرت في أرض العراق لكنت مسؤولا عنها لما لم أسوِّ لها الطريق". كما رغب معظم الخلفاء في معرفة الممالك التي أصبحت تحت إدارتهم من ذلك ما قام به الخليفة عمر بن عبدالعزيز من الكتابة إلى واليه في الأندلس يطلب منه فيها موافاته بصفة الأندلس وأنهارها[١٦]. وفي هذا بيان لأهمية الاتجاه الإقليمي للجغرافية في إدارة شؤون الدولة والتعرف على أحوالها والتخطيط لمستقبلها.

٢-٣-٤ تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية:

تميزت دولة الإسلام إبان نشأتها بالقوة والمنعة إلا أن ذلك لم يمنع من التفكير في الذود عن الأمة الإسلامية - التي يتربص بها أعداؤها حالة ضعفها أو انشغال المسلمين عن الجهاد في سبيل الله - بإيجاد بعض النقاط التي تكون مراكز للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد تم اختيار بعض المعابر الأرضية (الثغور)[١٧] بين ممالك الإسلام والممالك غير المسلمة نصرانية كانت أم لا دينية؛ لتكون مصدات لهجوم الأعداء، وإن اختيار هذه المعابر يأتي عبر معرفة جغرافية دقيقة بطبوغرافية المكان.

كما أن القادة قد ابتكروا نقط إمداد عسكرية شبه ثابتة - في حالة الحاجة إلى استنفار أكبر عدد ممكن من المسلمين للجهاد أو صد هجوم المعتدين- ببناء المدن الحربية في مواضع مختلفة فما البصرة والكوفة والقيروان إلا نماذج للمدن الحربية؛ فمدينة القيروان على سبيل المثال اختيرت بعناية من قبل القائد عقبة بن نافع في

(١٦) وهيبة، عبدالفتاح محمد، (١٤٠٤هـ)، الجغرافيا والثقافة الإسلامية، بحث للمؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد الثالث، إدارة النشر والثقافة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص ٤١٤.

(١٧) الثغر: الفرجة في الجبل، وجمعها ثغور.

الجزء الهامشي من المنطقة الرطبة وعلى مقربة من المنطقة الجافة وعند ملتقى طرق تتجه في جميع الاتجاهات مع اهتمام بوجود ينابيع مائية تكفل نمو المدينة، وفي هذا بيان لأهمية الموقع الجغرافي في الاتجاه العلمي للمتطلبات التي تحتاجها الدولة الإسلامية.

٢-٤: الدوافع الاقتصادية

حقق النشاط التجاري تنشيطًا للمعرفة الجغرافية عند المسلمين قدر ما حققه انتشار الإسلام في أرجاء واسعة من العالم؛ فالتجارة هي الحرفة الرئيسة للمجتمعات العربية حيث ارتبطت مدن الصحراء بالمناطق الزراعية. وكوَّن تجار المسلمين بعد انتشار الإسلام خلفية واسعة عن البلاد المحيطة بهم عبر علاقات تجارية.

وجعلت التجارة المعطيات الجغرافية أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من الأمم الأخرى، ووضعتها تحت تصرفهم فوسعت أفق الجغرافي؛ مما جعله يكتب عن مناطق لم يرها بل سمع عنها من التجار(١٨). ولقد تعددت العلاقات التجارية، ولعل أبرزها تلك العلاقات مع الهند وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا وأوربا. ولهذا العامل تأثير في بناء أساسيات الجغرافية التجارية لدى العلماء المختصين.

٢-٥: تشجيع العلماء

أسهم تشجيع العلماء في إبراز الاتجاه العلمي في الكتابات الجغرافية، وظهرت ثمرات هذا التشجيع في المصنفات التي خلفها علماء المسلمين. ويتلخص التشجيع في صور من أبرزها:

٢-٥-١ تنشيط الترجمة: أنقذ المسلمون الثقافات القديمة من الفناء، وكل ما أنقذوه قد خرجوا به وجعلوه في متناول كل راغب عن طريق ترجمته إلى لغة ليست جامدة كاللغة اللاتينية في الغرب، بل ترجموه

(١٨) الفيل، محمد رشيد، (١٤٠٤هـ)، أثر التجارة والرحلة في تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب، بحث للمؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد الثالث، إدارة النشر والثقافة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص ٤٥١.

إلى لغة حية في كل مكان وهي لغة القرآن الكريم[١٩]. ووجد المسلمون بعد انتشارهم في أجزاء واسعة من مواطن الحضارات السابقة كمًا من المعارف، منها ما يتعارض مع التعاليم الإسلامية كالشعوذة، ومنها ما لا يتعارض معها. وقد تم التركيز على المعارف التي تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي في محاولة للاستفادة منها، وتنقيح ما يصح وتقويم الخاطئ منها، وذلك عن طريق ترجمتها إلى العربية.

وتضيف الترجمة تأييدًا لبعض الأفكار التي جاء بها علماء المسلمين، خاصة في المعارف غير المحسوسة كالحسابات الفلكية التي كانت اتجاهًا علميًا ملحقًا بالجغرافية. وبلغت الترجمة ذروتها في الدور الأول من الخلافة العباسية، ومما يروى في عملية تشجيع الترجمة أن أحد أعضاء السفارة الهندية جاء إلى بلاط المنصور سنة ١٥٤هـ بكتاب قيم عن علم الفلك لدى الهندوس اسمه السند هند، ونظرًا لما للكتاب من فوائد جمة أمر الخليفة بترجمته وأوكل إلى إبراهيم الفرازي هذه المهمة[٢٠].

ويوضح إيكال الأعمال العلمية لبعض العلماء المختصين أهمية الاتجاهات العلمية. ومما نقل عن المؤرخين أن المأمون كان يكافئ المترجمين ثقل كتبهم ذهبًا.

ويعد كتاب المجسطي لبطليموس من أبرز الكتب الجغرافية المترجمة عن اليونانية، ولأهمية ما جاء فيه - نظرًا لاحتوائه على خلاصة الفكر اليوناني في هذا المجال- فقد ترجم مرات عدة من قبل ثابت بن قرة، والكندي والخوارزمي.

---

(١٩) هونكه، زيغريد، (١٩٦٩م)، شمس العرب تسطع على الغرب، المكتب التجاري، الطبعة الثانية، بيروت، ص٣٧٨.

(٢٠) حليمي، عبدالقادر، (١٣٩٩هـ)، مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا، الأصالة، العدد ٧٥، ذو الحجة، الجزائر، ص١٥٩.

٢-٥-٢ بناء المراصد: تقترن المعلومات الفلكية كأحد الاتجاهات العلمية بعملية الرصد المتتابع، وتحتاج تلك العملية إلى أجهزة تحقق هذا الغرض، وحيث إن ضيق ذات اليد مقترنة بالعلماء في أغلب الأحوال فقد دعَّم الخلفاء عملية البحث العلمي من خلال توفير مستلزماته، فمثلا أنشأ المأمون مرصدين: أحدهما بالقرب من بغداد، والآخر في دمشق، وخصص لهما عددًا من العلماء الذين يقومون بالرصد مسجلين قياساتهم في أزياج فلكية.

٢-٥-٣ توفير الكتب وإنشاء المكتبات: تم تأسيس بيت الحكمة ببغداد على يد الخليفة هارون الرشيد، وجمع لها ألوان من المعرفة التي خلفتها الحضارات السابقة، وكان ذلك عاملا مساعدًا على توسع حركة الترجمة.

٢-٥-٤ دعم الأبحاث الميدانية لمراجعة الأعمال القديمة: تحتاج بعض الحقائق الموروثة من الحضارات السابقة إلى التثبت من صحتها، وقد يحتاج هذا إلى قياسات ميدانية، ومن ذلك ما رواه ابن خلكان بقوله: إن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل، فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك؛ فسأل بني موسى بن شاكر، فقالوا: نعم هذا قطعي. فقال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا؟ فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي؟ فقيل لهم: صحراء سنجار، وكذلك وطاة الكوفة، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة، وخرجوا إلى سنجار، وجاؤوا إلى الصحراء المذكورة، فوقفوا في موضع منها، وأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات، وضربوا في ذلك الموقع وتدًا، وربطوا فيه حبلا طويلا. ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان، فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتدًا آخر، وربطوا فيه حبلا طويلا ومشوا إلى جهة الشمال أيضًا كفعلهم الأول، ولم يزل ذلك دأبهم حتى

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون
الدارة

انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة، فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبل فبلغ ستة وستين ميلا وثلثي ميل، فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلا وثلثان. ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلا وتوجهوا إلى جهة الجنوب - ومشوا على الاستقامة - وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك، وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقته. فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقًا لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر. فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار، فتوافق الحسابان، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك(٢١). وهذا العمل يعطي دلالات في المنهج والاتجاه العلميين عند المسلمين منها:

١ - أن المنهج الجغرافي الإسلامي كان مهتمًا بالتحقق مما جاء عند الحضارات السابقة، والحاجة إلى التحقق مطلب أساس في الدراسات الجغرافي؛ نظرًا لأهمية المعلومات التي سيتحقق منها؛ إذ إن الخطأ قد يترتب عليه معلومات خاطئة في أصول علم الجغرافية.

المنهج الجغرافي الإسلامي كان مهتمًا بالتحقق مما جاء عند الحضارات السابقة

٢ - جدية البحث والجلد عليه، حيث إن فريق العمل قطع ما يقرب من ٢٧٠ ميلا.

٣ - تكرار العمل للتأكد من القياس، وهو ما يعرف بالاختبارات الحقلية.

(٢١) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، (ب.ت)، وفيات الأعيان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، ص ص١٦٢-١٦٣.

٤ - إسناد العمل للمختصين في مجال القياسات الأرضية والفلكية.

وإذا كان المأمون قد دعم الأبحاث الميدانية فهو في الوقت نفسه أذن في تصحيح العلوم الجغرافية القديمة، ففي سنة ٨٢٠م (٢٠٥هـ) أذن المأمون بتصحيح تأليف بطليموس المعروف باسم المجسطي، وعلى إثر ذلك صدر كتاب الزيج المصحح من تأليف الفلكي يحيى بن أبي منصور[٢٢]. ويعد التصحيح في كتاب بطليموس سمة تخصصية، إذ الأصل في الأخطاء قائم على معلومات حسابية تم التصويب لها عبر الدراسة الميدانية ، أو بالمشاهدات، أو بالمقارنات المكانية.

٢-٦: الرحلات

مكنت الرحلات بجميع أغراضها إلى تفوق الجغرافيا الوصفية، كما أسهمت في تطور الجغرافية البلدانية (الإقليمية)، حيث كانت الرحلة هي المصدر العلمي لهذا النوع من الكتابات الجغرافية.

وتمثل الرحلة الوجه المشرق للجغرافية الإسلامية، ففي بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والانثروبولوجية لمعظم مناطق العالم الإسلامي. واعتمد كبار الجغرافيين المسلمين على الرحلة في جمع معلوماتهم، أو التأكد مما سمعوه أو نقلوه، فزاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها، وألفوا كتبًا تحدثوا فيها عن رحلاتهم فعرَّفت الناس بأجزاء كثيرة من العالم كانت مجهولة قبلهم[٢٣]. ولقد عنون بعض الجغرافيين كتبهم بأسماء تدل على المنهج الذي طرق في هذا الكتب، فمثلا ابن بطوطة عنون لكتابه بـ"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

وأصبحت الرحلات في مصنفات الكتب الإسلامية مصدرًا من مصادر المعرفة الجغرافية، فالمسعودي مثلا بدأ رحلاته المبكرة التي

(٢٢) صفر، البشير، (١٤٠٤هـ)، الجغرافيا عند العرب، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص١٩.

(٢٣) الفيل، مرجع سبق ذكره، ص٤٤٣.

زار فيها اليمن وحضرموت وعمان وبحر الزنج والهند والسند عام ٣٠٣هـ، ثم أتبعها برحلة طويلة بين عامي ٣٠٤ و ٣٣٢هـ- امتدت إلى ما يقرب من ٢٨سنة - إلى الممالك المحيطة ببحر الخزر وبعض الأقاليم الواقعة شرق دجلة. وأخيرًا برحلة إلى مصر وسورية استمرت أربع سنوات(٢٤)، وقد جمع في هذه الرحلات معلومات ميدانية متنوعة كانت مصدرًا لبعض ما أورده في كتابيه مروج الذهب ومعادن الجواهر، وكذا التنبيه والأشراف.

ثالثًا: طبيعة الاتجاهات العلمية في المصنفات الجغرافية الإسلامية

تعد المناهج التي سارت عليها المصنفات الجغرافية الإسلامية والتحليل الجغرافي الذي نتج عنه بعض النظريات أو الحقائق مما يحكم به على الاتجاه العلمي للمصنفات الجغرافية. ولكن قبل بحث تلك النقاط لابد من إطلالة على صورة الاتجاه العلمي للمصنفات عند المتأخرين.

٣-١: صورة الاتجاه العلمي في المصنفات الجغرافية الإسلامية عند المتأخرين

يرى بعض الجغرافيين أن الاتجاه العلمي لمصنفات الجغرافيا عند المسلمين مقتصر على اتجاهين: أحدهما فلكي، والآخر إقليمي، وهذه الرؤية تصدق بخصوص الاتجاه العام. ويرجع السبب في هذا التصور إلى أن المصنف منهم قد أورد معظم المعارف الفلكية أو الإقليمية في مصنفه، ويعود حشده للمعلومات بهذا الشكل إلى:

١ - الحاجة إلى تحديد بعض المسلمات العلمية عند شرحه للظاهرة الفلكية أو الجغرافية فمثلا عندما أرد ابن رستة شرح تباين أوقات الخسوف على الأرض بدأ بمقدمة لتوضيح هذا التباين، وهي بعيدة عن قياس الخسوف بقوله: إن الشمس والقمر وسائر

---

(٢٤) وهيبة، عبدالفتاح محمد، (١٤٠٥هـ)، رحلات المسعودي مصدر من مصادر معارفه الجغرافية، الكتاب الجغرافي السنوي، العدد الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص٤٩.

الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل يرى طلوعها على المواضع الشرقية من الأرض قبل طلوعها على المواضع المغربية، وغيبوبتها على المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية[٢٥].

٢ - أهمية الاستشهاد في إعطاء الظاهرة بعض التميُّز الجغرافي فمثلا توخى الحميري الاستشهاد بآيات الكتاب الحكيم والسنة النبوية وما صح من كتب السير في المواضع التي لها خصائص إسلامية معينة، في محاولة لربط المعلومات الجغرافية للمواضع بالشواهد من النصوص الإسلامية.

٣ - الربط العلمي بين الظاهرات الجغرافية أو بين الجغرافية والعلوم الأخرى، فعلى سبيل المثال ربط المسعودي بين الزمان والمكان، فهو في مقدمة كتابه "مروج الذهب ومعادن الجواهر" قدم القول فيها في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها ...[٢٦]، ثم أتبع ذلك بالأخبار التاريخية. ويطعم المسعودي غالبًا دراساته الجغرافية بجوانب تاريخية واجتماعية ودينية، مع اهتمام بأثر البيئة الطبيعية في صور وأخلاق البشر.

ومما يسهم في التوسع من قبل بعض المصنفين في الربط الجغرافي انفراده بالكتابة عن بيئات أو مواضيع جغرافية معينة، فمثلا الإدريسي نهج في كتاباته الجغرافية أسلوبًا مغايرًا؛ مما جعله حريصًا على دقة المعلومات لمعرفته أن ما قد يورده من معلومات قد لا تقوّم من قبل عالم آخر، وذلك لقلة المهتمين بتلك البيئات. وساعده انفراده بتدوين المعلومات عن تلك البلاد إلى توسيع مداركه من جهة وضرورة الربط بين الظاهرات من جهة أخرى.

---

(٢٥) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، (١٨٩١م)، كتاب الأعلاق النفسية، المجلد السابع، مطبعة بريل، ليدن، ص١٢.

(٢٦) المسعودي، أبو الحسن، (١٩٧٣م)، مروج الذهب ومعادن الجواهر، الطبعة الثانية، الجزء الأول، دار الأندلس، بيروت، ص١٧.

٣-٢: المنهج كأساس في تحديد الاتجاهات العلمية في المصنفات الجغرافية

اتخذت مصنفات التراث الجغرافي الإسلامي مناهج مختلفة في كتابتها للمعارف الجغرافية، وهذه المناهج إما أن تكون مكتسبة أو مبتكرة. وفرضت هذه المناهج اتجاهات علمية لا يمكن أن يحيد عنها المصنف، ومن ذلك مثلا ما اتخذه البيروني من منهج رياضي في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية، ومنهج إقليمي آخر في كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. وعرفت المراحل التي مرت على الجغرافية في العصور الإسلامية مناهج منها:

١ - منهج جغرافي ذو استقلالية فكرية يعتمد على الإسلوب الأدبي بصفته متأثرًا بروائع الشعر العربي أو المقالات النثرية. وللمؤلفات التي اتخذت هذا المنهج رغم قلة عددها قوة ورصانة علمية قلما تتوافر في غيرها من المؤلفات.

٢ - المنهج الرياضي، وهو انعكاس للحاجة التي نمت حول القياسات الحسابية للطوالع التي بدأت عند العرب قبل الإسلام، ولقد تطور المنهج الرياضي بعد ترجمة الكتب اليونانية ذات الصبغة الرياضية مثل كتاب المجسطي. وأصبح لهذا المنهج كتبًا معروفة مثل: كتاب "القانون المسعودي" للبيروني، و"الزيج الصابئ" للبتاني، وقد أعطى هذا المنهج للمصنفات الفلكية رصانة علمية؛ مما جعلها ذات مرجعية في الدراسات الحديثة. ويعد هذا المنهج أساسًا في تطور الاتجاه الرياضي (الفلكي).

٣ - المنهج الوصفي الإقليمي: أصَّل جغرافيو المسلمين هذا المنهج وأبدعوا فيه، ووضعوا له الأطر العلمية، وجاء الإبداع في أدبيات هذا المنهج لأسباب يمكن أن تلخص في:

أ - الاتساع في كم المعلومات عن بقاع الأرض؛ مما جعل الاستفادة الفعلية منها لا تتحقق إلا في حالة وضع تصنيف لهذه المعلومات بشكل موضوعي.

ب - التجارب المتعاقبة حول الكتابة بمنهج إقليمي التي امتدت أكثر من أربعة قرون، وهذا كان من شأنه التطوير لهذا المنهج وإدخال تعديلات في آليات الوصف.

ج - تعدد المدارس الإسلامية في أسلوب الكتابة الإقليمية بما يعرف بالمدرسة البطليموسية والمدرسة البلخية (شكل ٢)؛ مما أحدث تنافسًا بينها في قبول الطرح الجغرافي عند المتلقين.

د - تبني العديد من المصنفين لهذا المنهج، فقد كان أكثر الكتاب يخضعون مصنفاتهم للأسلوب الوصفي المدعم بالمشاهدات والتحقيقات الميدانية.

هـ - وجود فائدة علمية وعملية للمعلومات المدونة وفق هذا المنهج؛ مما جعل أكثر الخلفاء والملوك يدعمون الاتجاه الإقليمي بتأليف عدد من المصنفات، فمثلا قام الإدريسي بتأليف كتاب في تقويم البلدان لغليوم الأول عنونه بـ "روضة الأنس ونزهة النفس".

شكل رقم (٢)

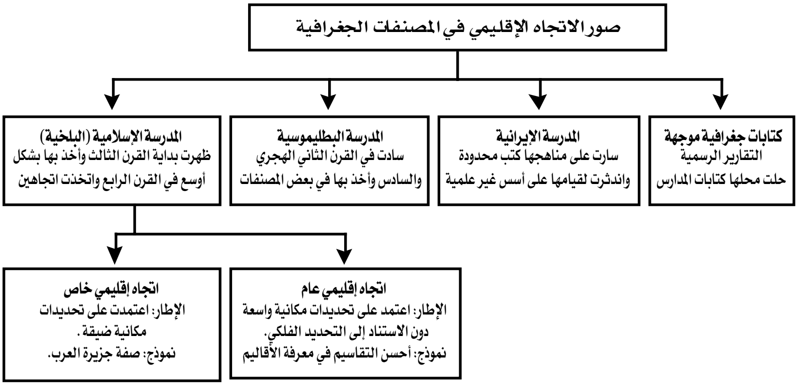

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون
الدارة

٣-٣: التحليل الجغرافي معيار دقيق لتبني الاتجاهات العلمية في المصنفات الجغرافية

يمكن الاستناد إلى التحليل الجغرافي الذي ورد في المصنفات الجغرافية الإسلامية للحكم على تبني اتجاهات علمية متعددة، ونظرًا لتعدد المصنفات وصعوبة حصر التحليلات الجغرافية في كل منها؛ فإن البحث قام بالاستشهاد (غير الموسع) في الاتجاه الجغرافي الخاص بدراسة المدن بهدف التحقق من وجود الاتجاهات العلمية.

اتسع الاهتمام بدراسة المدن حتى إن بعض علماء المسلمين قد أورد ذلك في مقدمة مصنفه، فمثلا ذكر القزويني الحاجة الداعية إلى إحداث المدن والقرى بقوله: إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحيدًا كسائر الحيوانات، وإنما لابد من الاجتماع الذي تحصل به المصلحة بين الأفراد في القيام بالمصالح الخاصة والعامة. ثم يذكر أن الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا بالخيام لم يأمنوا مكر اللصوص، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله اتخاذ السور والخندق والفيصل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار. ثم إن الملوك الرَّاحلين لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك؛ فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد وأفضل مكان في الناحية ...؛ لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض فإنها تورث كربًا وهرمًا[٢٧].

وأخذت دراسات جغرافية المدن في المصنفات الإسلامية اتجاهين علميين: أحدهما وصفي والآخر تعليلي، ويمكن تتبع هذه الاتجاهات لمعرفة الإضافات العلمية التي أضافتها إلى هذا التخصص:

---

(٢٧) القزويني، زكريا بن محمد، (ب. ت)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ٨.

٣-٣-١ الدراسات الوصفية: كانت من أهم أهداف الجغرافيين الإقليميين والرحالة وصف المدن بدقة، مركزين بذلك على تاريخها وأجوائها وسكانها وأهم منتجاتها وتعاملاتها التجارية مع الآخرين. وتتمثل الدراسات الإقليمية بالكتب البلدانية، وبكتب المسالك والممالك ومما جاء في ذلك:

١ - أورد ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" وصفًا للمدن التي استعرضها في دراسته للأقاليم. فقد وصف عدد من المدن نأخذ أمثلة منها:

وصف ابن حوقل الفسطاط بقوله: "الفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها نحو فرسخ على نهاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام إلى ظاهر أنيق وهواء رقيق وبساتين نضرة ومنتزهات على مر الأيام خضرة ... وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها. ومعظم بنيانهم بالطوب وأكثر سفل دورهم غير مسكون. وبها مسجدان لصلاة الجمعة"(٢٨). ويتضح من الوصف التركيز على عدد سكان المدينة، وتقدير مساحتها مع إيرادٍ لخصائص أسواقها وإبراز لبعض المرافق والخدمات.

ومن الأمثلة المختصرة في وصف المدن ما ذكره في وصف مدينة الطائف بقوله: "والطائف مدينة صغيرة ... كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها الزيت وهي طيبة الهواء، وفواكه مكة وبقولها منها وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل، وليس بالحجاز فيما علمته مكان أبرد من رأس هذا الجبل؛ ولذلك اعتدل هواء الطائف"(٢٩). وهو بهذا الوصف يؤكد أثر الموضع

(٢٨) ابن حوقل، أبو القاسم، (١٩٧٩م)، صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، ص١٣٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٣٩.

الجغرافي على مناخ المدينة، كما أنه أعطى بيانًا لتوزيع القبائل وارتباط استقرارها بالمدن.

٢ - امتازت الكتب البلدانية المتخصصة بدقة الوصف مع إقران الوصف بالصورة، ومن ذلك ما سطره ابن المجاوز في كتابه صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز بوصفه لمدينة جدة بقوله: "هي مدينة صغيرة على ساحل البحر وهي فرضة مكة، وليس يمكن بها السكون (السكنى) لازدحام الخلق بها في أيام الموسم الحاج؛ لأنه يلتام إليها من جميع أطراف بلاد العالم ... وإذا قل الماء على أهلها نقلوه من القرين ما بين مكة وجدة"(٣٠).

شكل رقم (٣)

مدينة جدة كما صورها ابن المجاوز

٣ - أبدع الإدريسي في وصف المدن في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، فهو يولي اهتمامًا كبيرًا لدراسة المدن، ومما ذكره في ذلك وصفه الدقيق لمدينة قرطبة بقوله: ومدينة قرطبة قاعدة بلاد

(٣٠) ابن المجاوز، جمال الدين أبي الفتح، (١٩٥١م)، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، مطبعة بريل، ليدن، ص٥١.

الأندلس وأم مدنها... وهي في ذاتها مدن خمسة يتلو بعضها بعضًا بين المدينة والمدينة سور حاجز وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق... ولا بلد أكبر اسمًا منها في بلاد الأندلس(٣١).

أما مصنفات الرحّالة فقد اعتنت بوصف المدن، ويمكن أخذ مثال على وصف إحدى مدن الشام (حماة) في مصنف ابن بطوطة المسمى برحلة ابن بطوطة أو تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار بقوله عنها: "إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق، تحف بها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي. ولها ربض سمي بالمنصورة ... فيها الأسواق الحافلة والحمامات الحسان"(٣٢).

٣-٣-٢ دراسات اقترنت بالتعليل: اتصفت دراسة ابن خلدون بهذا النمط، على الرغم من وجود أعلام جغرافية أخرى سبقت ابن خلدون في هذا المضمار، ولكن ليس بالشمول والتطبيق أنفسهما(٣٣)؛ فالمقدمة لا تولي وصف المدن القدر الذي تحاول فيه تحديد العوامل المقترنة بظروف مواقعها ونموها وأحجامها، مع تحديد لتعريف المدينة.

١ - ظروف الموقع: بلغ عدد المدن التي أنشأها المسلمون خارج الجزيرة العربية ما يزيد على مئتي مدينة خلال حكم الخلفاء

(٣١) الإدريسي، أبي عبدالله، محمد بن محمد بن عبدالله، (ب. ت)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، عالم الكتب، بيروت، ص ص ٥٧٤-٥٧٩.

(٣٢) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، (ب. ت)، رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص٥١.

(٣٣) الشامي، عبدالعال، (١٩٨٨م)، جغرافية العمران عند ابن خلدون، سلسلة علمية تصدر عن وحدة البحث والترجمة، قسم الجغرافيا بجامعة الكويت الجمعية الجغرافية الكويتية، ص ١٨١. وهناك اختلاف حول ما إذا كان ابن خلدون مسبوقًا بدراسة ظروف المدن أم لا، وإن اشتراك ابن خلدون مع علماء سابقين له حول أساسيات الوضع الطبيعي للمدن يمكن أن يكون مما يتكرر فيه القول ويتماثل أو يتشابه دون أن تكون هناك صلة النقل المباشر (الشامي، ١٩٨٨م، ص ١٦٧).

الراشدين وفي عهد الأمويين والعباسيين[٣٤]. ويعطي هذا الرقم مع ما ذكر حول تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية - كأحد العوامل المرتبطة بالمتطلبات الإدارية والعسكرية - أهمية دراسة المواقع بشكل دقيق لتحديد المزايا التي يتمتع بها والعيوب التي ترتبط به. ومن هذا المنطلق خصص ابن خلدون لهذا الأمر فصلا فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة في جانبين:

أ - دفع المضار: ويكون ببناء أسوار للمدن، مع الحرص على الموضع الذي تحصل به المنعة الطبيعية، ويقول في هذا: "وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة؛ إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها من العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها"[٣٥].

ومن القضايا التي أخذت في دفع المضار السلامة من الأمراض بأن يكون الموقع طيب الهواء بعيدًا عن الراكد من الماء؛ لما قد يسببه ركود الماء من انتشار الآفات وما يصاحبه من تفش للأمراض. وقد أعطى ابن خلدون أمثلة لبعض المواضع السيئة التيً لم تختر بعناية مثل: مدينة قابس بالمغرب.

ب - جلب المنافع: ويراعى فيها توافر الماء بأن تكون المدينة على نهر جار أو بالقرب من عيون عذبة، كما يشترط لمثالية الموقع طيب المراعي للسائمة وقربه لما يترتب على بعده حصول المشقة، ويراعى

---

(٣٤) فاعور، علي، (١٩٨١م)، جغرافيا تاريخية: المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب، الفكر العربي المعاصر، العدد الثاني عشر، بيروت، ص ١٠٨.

(٣٥) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ب.ت)، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ص ٢٧٦.

أيضًا توافر المزارع التي يتحصل بها قوت الناس، ويرى في اختيار المدن الساحلية الحصانة الطبيعية والبشرية فقد ذكر أن "مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد ... والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الأساطيل البحرية"(٣٦).

٢ - نمو المدن: يخضع نمو المدن إلى مقومات تدفع به، أو إلى معوقات تحد منه. ولقد أورد ابن خلدون في الفصل الرابع من الكتاب الأول أن المدن عند نشأتها يمكن أن تنمو بتوجيه من الدولة رغبة منها في اجتماع الأيدي، وهو بهذا يقول: "فلابد من تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها، فإن كان عمر الدولة قصيرًا وقف الحال بها عند انتهاء الدولة، وتراجع عمرانها، وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة، وينفسح ذراع المساحة كما هو واقع ببغداد وأمثالها"(٣٧).

٣ - تصنيف المدن وتدرجها: أخذ المسلمون بمسألة اختلاف المدن في أحجامها، وهذا أوجد مصطلحات تختص بهذا الاختلاف فهناك البليدة والبلدة والبلد. وتم ربط أحجام المدن بالأسواق فمثلا أوضح ابن خلدون أن متى ما كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وأن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في حاجاته وأسعار حاجته. وقد

(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

(٣٧) المصدر نفسه، ص٢٧٢.

بيَّن الجغرافيون المسلمون تدرج المدن استنادًا إلى معايير مختلفة، ومن ذلك ما عبر به المقدسي بقوله: اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجالة[٣٨]. والسمات الواجب توافرها لتعريف المدينة تركز على:

١ - أن يكون بلدًا جامعًا مع وجود سلطة قائمة عليه.

٢ - أن تقام فيه الحدود.

٣ - أن يقوم بنفقته وبجمع رستاقه[٣٩].

٣-٤: النظريات الجغرافية تفرض وجود الاتجاهات العلمية في المصنفات الجغرافية الإسلامية.

انتهجت المصنفات الجغرافية عند المسلمين طرقًا علمية أمكن من خلالها اتضاح المسارات العلمية التي ستعالجها تلك المصنفات عن طريق رسم أهداف تحقق الغاية المقصودة من الكتابة. ودعمت الأهداف بإطارات نظرية استنادًا إلى المتوفر من المعرفة والقوانين الحسية المثبتة بالتجربة، علاوة على الملحوظة. بل إن بعض العلماء أرادوا التحقق من الفرضيات التي جاءوا بها، واختبار الفرضيات بالنفي أو الإثبات؛ مما جعل هناك نظريات إسلامية تعزى إلى علماء المسلمين.

إن مدلول النظرية لم يكن مستخدمًا في تلك الفترة، ويرادفه مصطلح الحقائق التي توصل إليها العلماء حول بعض الظاهرات، فعلى سبيل المثال: تحقق البيروني من آثار التعرية المائية في الصخور بقوله: عند النظر في الصخور والآثار التي تمر بها نجد أن التغيرات

(٣٨) المقدسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، (١٤٠٨هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث، بيروت، ص٥٤.

(٣٩) المنيس، وليد عبدالله، (١٤١٠هـ)، جغرافية الحضر: دراسة منهجية لجهود العلماء المسلمين في تطويرها، حوليات كلية الآداب، الرسالة الخامسة والستون، كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، ص ٢٣.

في هيكلها قد حدثت منذ أزمان بعيدة وفي أحوال غير محددة من الأحوال الجوية؛ لأننا نجد الآن أن الماء والريح يستغرقان وقتًا طويلا في آداء عملها(٤٠).

وعلى سبيل المثال - أيضًا - يعد ابن خلدون من المؤلفين الذين تجاوزوا البحث في المصادر التي استعملوها؛ ذلك أنهم لا يرجعون إلى المصادر لكي يستقوا منها معرفة وحسب بل يفكرون في هذه المعرفة تفكيرًا نظريًا؛ وبعبارة أخرى هم يوظفون المعارف المستقاة من مصادر مختلفة؛ لأجل صياغة تنظير معين، أو قد يكون لديهم حدس لتنظير ما؛ فيسعون إلى دعمه بشواهد فتكون القراءة دعمًا للتنظير(٤١). ومن الحقائق (النظريات) التي توصل إليها ابن خلدون في نشأة الدولة ما ذكره من وجود أربع دعائم لنشأتها هي: العصبية، والفضيلة، ووجود دعوة دينية أو مبدأ سياسي، ثم ضعف الدولة التي قامت على أنقاضها.

يعد ابن خلدون من المؤلفين الذين تجاوزوا البحث في المصادر التي استعملوها

وهذه الحقائق أو النظريات وجدت لها صدى علميًا مقبولا لاتسامها بالعمق العلمي والاتساع التطبيقي، وأصبحت في مصاف النظريات الحديثة، فمثلا نظرية ابن خلدون في نشأة الدولة بقيت مفسرة لما لم تستطع نظرية جونز المعاصرة تفسيره من نشأة للوحدات السياسية.

(٤٠) خضر، عبدالعليم عبدالرحمن، (١٤٠٢هـ)، المسلمون وعلم الجغرافيا، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ص ص ١١١-١١٢.

(٤١) أومليل، علي، (١٩٨٠م)، مصادر ابن خلدون في المعرفة والتنظير، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجامعة العربية، ص ٦٧ - ٦٨.

الخاتمة:

يتضح بعد العرض السابق أن الاتساع المعرفي في المصنفات الجغرافية لا يتنافى مع الاتجاه نحو الطرح العلمي التخصصي في جميع ميادين فروع الجغرافية. ومما أسهم في وجود الاتجاه العلمي في المصنفات الجغرافية تعدد المهتمين بعلم الجغرافية، وهي صفة اقترنت بالحضارة الإسلامية التي أنجبت أعدادًا يصعب حصرها من الجغرافيين المختصين، أو حتى أولئك الذين جعلوا من الجغرافية وسيلة يتم بها الوصول إلى تفسيرات للأفكار المتعلقة باختصاصاتهم العلمية. وإن مما يضاف إلى اتخاذ الاتجاه في الكتابات الجغرافية إيمان المصنفين أن الجديد في المعرفة الجغرافية يكون بالبحث عن المعلومات التي لم يسبق عرضها من قبل آخرين.

وإن التداول الفكري لكثير من المعلومات التي جاءت في المصنفات الجغرافية الإسلامية في العصر الحديث وتكريس جهود عدد كبير من المستشرقين لسبر وفهم كنوزها العلمية بل وترجمة نصوصها من العربية إلى الأجنبية؛ لدليل على أنها تحوي معلومات تخصصية في فروع الجغرافية، كما يعد الاحتفاظ بهذه المصنفات في كبريات المتاحف العالمية، أو إعادة طباعة كثير منها لدليل راسخ على أصالتها وعلو كعبها العلمي رغم البون الزمني الذي يفصلنا عن تاريخ تصنيفها.

ولتتمكن المدرسة الجغرافية العربية والإسلامية في العصر الحديث من التطور عليها الاستناد على المعطيات الجغرافية العلمية التي تزخر بها بطون المصنفات الإسلامية، وإحاطة طلابها في مرحلة البكالوريوس بالمعالجات التخصصية الواردة في المصنفات لجميع فروع الجغرافية. كما يعد إضافة مقرر خاص تُدرس فيه جهود المسلمين في الجغرافية هو أقل درجات العناية بهذا التراث، خاصة إذا علمنا أن الآخرين قد أنشؤوا معاهد استشراقية بغرض الاستنباطات العلمية من تلك المصنفات.